

الأنساقُ المتوائمةُ

لتخطيطِ صورةِ الآدابِ العباسيةِ (*)

بقلم : الدكتور جُودة أمين
الأستاذ المساعد بكلية دارالعلوم - جامعة القاهرة

*** **

يَتَّفِقُ النَّاسُ ..
فلا ارتيابَ .. أنْ اتسعتْ العلومُ والمعارفُ في العصورِ العباسيةِ .
ولا يَخْتَلَفُ المؤرِّخُونَ والنَّقَادُ ..
إذ ليسَ مَطْرُوحاً للنَّقَاشِ - لديهم - ازدهارُ الفنونِ والآدابِ ، إِيَّانَ القُرُونِ الوسطى
الإسلاميةِ .

سُمُوٌّ في الفِكرِ ..
وإبداعٌ في الفنِّ ..
تلكَ بَدَهيَّاتٌ توطَّدَتْ .. واستقرَّتْ ..
رسَّختها سياسةٌ عربيةٌ قويَّةٌ وحازمةٌ ..
وثَبَّتَتْ دعائمها رُؤىً عقديَّةً صادقةً وحكيمةً .

(*) يهدفُ هذا البحثُ - في جوهره - إلى فَضِّ اشتباكِ الخطوطِ المتقاطعةِ ، وإعادةِ ترتيبها
لترسمَ صورةً إجماليةً مُدمجةً للآدابِ العباسيةِ ، مُستعيناً - في ذلكَ - بأهمِ الأطرِ المنهجيةِ
المَعْرُوفَةِ .. بعدَ تنظييمها في أنساقٍ تتواءمُ معَ الكمِّ الهائلِ مِنَ التراثِ الأدبيِّ المتنوعِ
في القرونِ الطويلةِ الممتدَّةِ لحكمِ بني العباسِ .

ثِقَّةٌ بِالنَّفْسِ .. دَفَعَتِ الْعَبَّاسِيُّنَ يَفْتَحُونَ الْأَبْوَابَ وَالنَّوَافِدَ عَلَى الثَّقَافَاتِ الْأَجْنِبِيَّةِ ،
أَيَّامًا كَانَ مَصْدَرُهَا ، وَأَيَّامًا كَانَتْ هَوِيَّتُهَا ، أَوْ كَانَتْ مَرَامِيهَا .
سِيْعَةُ أَفْقٍ .. اسْتَوْعَبَتِ التَّيَّارَاتِ الْوَافِدَةَ - مَهْمَا كَانَتْ مَخَاطِرُهَا ، دُونَمَا تَخَوُّفُ
أَوْ حَرَجٌ ، مَا دَامَتْ عَقِيدَةُ الْإِسْلَامِ رَاسِخَةً ، وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَغْمُرُ الْقُلُوبَ قُوًيًا .
رَجَاحَةُ عَقْلِ .. تَمَثَّلَتْ .. وَدَقَّقَتْ ، فَافْرَزَتْ لِلْعَالَمِينَ فِكْرًا مُصَفًى ، يَسِيلُ
مَنَافِعَ لِلنَّاسِ .

شُعَارُ الدَّوْلَةِ وَالْأُمَّةِ:

.. فَلْيَذِلْ كُلُّ عَالَمٍ بِدَلْوِهِ ، وَلْيَتَتَكَبَّرْ كُلُّ مُبْدِعٍ مَا يَشَاءُ ..
(... فَأَمَّا الزَّبَدُ .. فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ .. فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ...) .

وَمِنْ ثَمٍّ .. فَإِنَّ عَصْرًا أَدْبِيًّا - أَيَّ عَصْرِ - لَمْ يَبْلُغْ قَدْرًا مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْعَصُورُ
الْعَبَّاسِيَّةُ ، مِنْ الِاتِّفَاحِ الثَّقَافِيِّ الْوَاعِي ، وَالتَّقَاعُلِ الْفِكْرِيِّ الْحَرِّ ، أَوْ مِنَ التَّنَوُّعِ الْأَدْبِيِّ
الْخَلَّاقِ ، حِينَ سَابَقَ الْعَصْرُ إِلَى تَيَّارَاتِ الْمَدِينَةِ الْوَافِدَةِ ، وَإِلَى مَا اسْتَخْلَصَ الْعَقْلُ
الْعَرَبِيُّ ، مِنْ ثَقَافَاتٍ مَنُوعَةٍ ، أَقْبَلَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِحِكْمَةِ الْفَرَسِ ، وَعِظَةِ الْهِنْدِ ،
وَفِكْرِ الْيُونَانِ .

وَأَيَّةُ ذَلِكَ .. أَنَّ الثَّرَاءَ الْفَسِيحَ لِلْحَيَاةِ الْعَبَّاسِيَّةِ .. فَرَضَ نَفْسَهُ - بِالْحَاحِ عَلَى
الْمُبْدِعِينَ ، فَكَانَ أَنْ اسْتَوْعَبَ الشُعْرَاءُ - وَالْأَدْبَاءُ - الْأَلْوَانَ الْجَدِيدَةَ مِنْ ثَقَافَةِ الْعَصْرِ ،
وَتَمَثَّلُوا حَضَارَةَ الْآخَرِينَ ، ثُمَّ أَعَادُوا تَشْكِيلَ تِلْكَ فِي قَوَالِبِ فَنِّيَّةٍ اسْتَوَتْ عَلَى سَوْقِهَا ،
وَصَوَّرُوهَا فِي أَدَبٍ بَدِيعٍ ، ظَهَرَتْ آثَارُهُ .. فِيمَا طَرَفُوا مِنْ مَوْضُوعَاتٍ جَدِيدَةٍ ، أَوْ
أَغْرَاضٍ مُطَوَّرَةٍ ، وَفِيمَا ابْتَكَرُوا مِنْ مَعَانٍ وَتَرَاقِيْبٍ ، بَلَغَتْ غَايَةَ الْإِجَادَةِ وَالِاتِّقَانِ ،
ثُمَّ فِيمَا اسْتَحْدَثُوا فِي الشَّعْرِ مِنْ نَغَمَاتٍ وَأَوْزَانٍ ، بِأَنْمَاطٍ مِنَ الْقَوَافِي كَانَتْ مَجْهُولَةً ،
مُسْتَفِيدِينَ مِمَّا دَخَلَ لُغَتَهُمْ مِنَ الْأَفَاطِ الْأَمَمِ الْمُجَاوِرَةِ ، نَافِذِينَ - بِذَوْقِهِمِ الْجَدِيدِ
الْمُكْتَسَبِ - إِلَى اسْلُوبِ عَصْرِيٍّ رَاقٍ ، يَزَاجُ - حِينًا - بَيْنَ الْقُوَّةِ وَالْجِزَالَةِ ، وَأَحْيَانًا
بَيْنَ السَّهُولَةِ وَالْعَذُوبَةِ .

إنَّ الأدبَ في العصور العباسية .. كان الأكثرَ التصاقاً بحياة المجتمع والناس ،
سائر تلك الحياة تنوعاً وتجدداً ، أصابهُ ما أصابها من خيرٍ أو شرٍّ ، وعراهُ ما اعتراها
من اليماع أو خفوتٍ ، فكان التجاوبُ بينه وبينها قويّاً واضحاً ، يُعربُ عن حيويّة
زاهرة ، وعن مرونة جعلته أداة طيّعة ، للتعبير عن ألوان منوعة من مشارب الحياة
لم يقصّر أدبنا العربي - في ذلك - ولم يتأخّر .

وسوف لا تجد .. في أدب عصر من العصور ، أو أمة من الأمم ، ما تجده في
أدب العباسيين ، من غنى وروعة ، ومن تحضر وترف ، ومن وقاء بكل الانفعالات ،
التي تموج بها النفس الإنسانية ، في زهدها ونسكها ، أو في لهوها ومجونها ، وتأثير
ذلك كله على السلوك ، واهتمامات الحياة .

*** ** *

هذا .. ولقد امتدّت عصور الخلافة العباسية .. أكثر من خمسة قرون ، منذ
القضاء على الدولة الأموية في الشرق (١) ، بانتصار ثورة بني العباس سنة ١٣٢هـ ،
إلى أن سقطت بغداد في أيدي التتار سنة ٦٥٦هـ .
وفي داخل هذه القرون الطويلة الممتدة .. تقلّبت الحياة كثيراً ، وتغيّر وجهها ،
تبعاً لظروف السياسة ، وتغيّر الحاكمين ، ونتيجة لتوالي الانقلابات السياسية ، وكثرة
الثورات الاجتماعية ، وتعدّد الدويلات الانفصالية .

بعبارة أخرى .. شهدت الامبراطورية الإسلامية ، خلال العصور العباسية ،
أنماطاً من السياسة ، تآرجحت بين درجات متفاوتة ، من القوة والضعف ، بالنظر
لما كان متاحاً لهؤلاء الحاكمين العرب ، من سيادة وسيطرة ، أو ما كان يعترى خلفاء

(١) تمكن عبد الرحمن الداخل ، حفيد هشام بن عبد الملك ، من الفرار إلى الأندلس ، حيث أسس بها
دولة أموية بديلة ، ظلت نحو ثلاثمئة عام .. لا تدين للخلافة العباسية ، ولا يستطيع الخلفاء
العباسيون إخضاعها .

العباسيين - في بعض الأحيان - من ضعفٍ يحولُ بينهم وبين الحكم الخالص ، أو السيادةَ الحقيقيةَ ، وحينئذٍ .. تنقُصُ الصُّورُ الأجنبيةُّ المتربِّصةُ ، فتتمكَّنُ من النفاذِ إلى مصادرِ اتخاذِ القرارِ ، ومن ثَمَّ .. التحكمِ في مصائرِ الحياة ، والإشرافِ على الدولة ، وتوجيهِ الأمورِ فيها .

ولسنا نشكُّ .. في أنَّ الحياةَ الأدبيةَ العربيَّةَ ، قد تأثَّرتْ - كثيراً - بهذه الأوضاعِ ، وواكبتْ كلَّ تلكِ التغيُّراتِ ، وتعايشتْ معها ، وسجَّلتْ نبضَ الشارعِ العربيِّ تجاهها ، وتدوَّقتْ مرارتها - أو حلاوتها ، فخلَّفتْ - لنا - هذا التراثَ الهائلَ ، الحافلَ بشتَّى التياراتِ ، وتعاكسِ الاتجاهاتِ ، مُتمثلاً في أدبِ العصورِ العباسيةِ .

وهنا .. يُحَيَّرُ الدَّارسينَ تساؤلاتٌ :

- كيفَ نصنِّفُ هذا التراثَ الضخمَ ؟!

- وما النسقُ المنهجيُّ الموائمُ لدراسةِ كلِّ تلكِ الاتجاهاتِ الأدبيةِ ..

ذاتِ المشاربِ المتعدِّدةِ ، والألوانِ المتضاربةِ ؟!

- وأنَّى لنا .. ما نصبوُ إليه من رَسمِ صورةٍ تخطيطيةٍ ، تبرزُ بعضَ

ملامحِ الآدابِ العباسيةِ ؟!

ولكي نجيبَ عن كلِّ هذه الأسئلةِ .. أرى أن نوجزَ الحديثَ عن أنساقِ الدِّرسِ الأدبيِّ ، التاريخيِّ .. والبنائيِّ الفنيِّ ، وعن المَزجِ الطَّوعيِّ التَّوافقيِّ بين طرائقِ العلومِ المختلفةِ ، ثُمَّ نشيرُ إلى تلكمِ الطرائقِ التَّكامليةِ .. ذاتِ القياساتِ الموائمةِ . للتطبيقِ على آدابِ القُرُونِ العباسيةِ .

أولاً - النسقُ التاريخيُّ :

أكثرُ الدَّارسينَ .. يربطون العصورَ الأدبيةَ العباسيةَ ، بالتقلُّباتِ السياسيةِ ربطاً آلياً ، دونِ رعايةٍ ما للقيمِ الفنيةِ الجديدةِ وأدواتها المستحدثةِ ، ودونِ اهتمامٍ بالتياراتِ

الأدبية - تجديداً أو تقليداً ، ثم دون العناية الكافية بالمؤثرات الفنية ، كالطبع والصناعة ، أو الحرية والالزام ، وما إلى ذلك .. من سمات خاصة ، قد تميز فترة عن فترة ، أو اتجاهاً عن اتجاه ، أو أديباً عن أديب .

وتبعاً لهذا الربط التاريخي المجحف - أحياناً .. اعتاد مؤرخو الأدب - أو أكثرهم تقسيم القرون العباسية الخمسة ، إلى عصور أربعة ، تتميز - فيما بينها - باختلاف الأحوال السياسية - قوة وضعفاً ، ثم .. بتغير الأوضاع الاجتماعية والثقافية ..

وسوف نوضح بعض ذلك في الصفحات التالية :

١- العصر العباسي الأول (١٣٢هـ - ٢٣٢هـ) :

ويطلقون عليه : عصر الإسلام الذهبي ..

ويبدأ بقيام دولة العباسيين سنة ١٣٢هـ ..

وينتهي .. بعد قرن من الزمان ، مع بداية خلافة المتوكل سنة ٢٣٢هـ .

وكان خلفاء هذه العام هذه .. من القوة المسيطرة ، والعزة العربية ، بحيث حفظوا للدولة هيبتها ، وللعروبة مكانتها ، وللإسلام رونقه ، فهو عصر الخلفاء العظام ، عصر المنصور ، والرشيد ، والمأمون ، فيه نشأت أكثر العلوم الإسلامية ، وترجمت - إلى العربية - جلّ الثقافات الأجنبية ..

وربما .. أغرى ذلكم التاريخ المختال بعضاً من دارسي الأدب - أو هو بالفعل يدفع المتحمسين لهذا النسق المنهجي دفعاً - إلى ولوج قضايا سياسية واجتماعية .. هي مهمة في ذاتها ، وتُشيع على الدراسات الأدبية من دفتها ونورها ، بيد أنها خارجة عن دائرة الأدب ، والبحث فيها قد يستنفذ كثيراً من قوى الدارس الأدبي ، أو يوهن عزمه عن الغوص إلى العمق المرجو في مباحث أخرى من صميم عمل الناقد ..

فمثلاً .. يتطرقُ مرتادو النسقِ التاريخيِّ - في طَرَجهم لأَذَابِ العصرِ العبَّاسيِّ
الأوَّل - لأربعةِ معالمٍ رئيسيَّة - سياسيَّة واجتماعيَّة - تميَّزت بها هذه الفترة ، ويروُنْ
لها تأثيراً فعَّالاً في الأدبِ ، وفي شخصيَّة الأديب .. وهي :

(أ) غلبةُ العنصرِ العربيِّ : حيثُ سيطرتُ الخلافةُ العبَّاسيَّة - في هذه الفترة - سيطرةً
شبهَ تامَّة ، وأمسكتْ - بعنقبِ - على زمامِ الأمورِ في الدولة ، وتعهَّدتْ هيَ تصرِيفَ
شئونِ السِّيَاسَةِ والرَّعيَّة ، إذ قد تولَّى الأمر - وقتنْذ - عدَدٌ من الخلفاء .. عُرِفوا بالقُوَّة ،
وبالعنصريَّة العربيَّة ، وبغيرة - حتى لو كانت شكليَّة على مبادئِ الإسلامِ وتعاليمه ..

ولذا .. لم يستطعُ النفوذُ الفارسيُّ الجامحُ ، أن يغلبَ هؤلاءِ الخلفاءَ على أمرهم ،
إذ كان هذا النفوذُ .. بمثابةِ منحةٍ من العبَّاسيِّين للفرسِ ، وهبةٍ مُهداةٍ من القائدِ الأقوى ،
للمرتزقةِ الموالي - وقُودِ الحرب - الذين أقاموا دولةَ العربِ على سواعيدهم ، وحين
أساءَ بعضُ زعمائهم هذا التقديرَ ، وعدَّوا المنحةَ حقاً مكتسباً ، وعملوا على التمكينِ
للسيادةِ الفارسيَّة ، بادر الخلفاءُ العربُ بالضربِ على أيديهم بعنقبِ ..

فقاضى الخليفةُ الأوَّل - أبو العبَّاس السَّفَّاح .. على أبي سلمة الخلالِ ، لما استشعر
منه نوعاً من التمردِ ، والاعتدادِ بالنفسِ ..

وقتلَ أبو جعفر المنصور .. أبا مُسلمِ الخرسانيِّ ، لمثلِ ما قُتِلَ به الخلالُ ، من
تمردٍ وطغيانٍ ..

وقتلَ الخليفةُ الخامسُ - هارونُ الرشيدُ .. بالبرامكةِ الفُرسِ ، حينما أحسَّ
خطرهم ، على سيادةِ الدولةِ العربيَّة ، ورأى انحرافهم بتصرِيفِ أمورِ الناسِ ، إلى
ما يشبهُ أن يكونَ سلطاناً فارسياً .

فإلى حدِّ كبيرٍ .. بقيتِ الدولةُ العبَّاسيَّة في هذا القرنِ ، عربيَّة العنصرِ ، إسلاميَّة
المنزَعِ والسلوكِ .

(ب) بداياتُ المدِّ الشَّعْبيِّ : وفي حرصٍ .. احتضنَ العبَّاسيُّون - آنئذٍ - بعضَ العناصرِ

الفارسية ، الذين ساندوا الدولة في دَعْوَتِهَا - بتأييدهم وجهدهم ، ثم .. أقاموا راياتها شامخة قوية - على أكتافهم ، فاتخذ الخلفاء وزراءهم ، وقواد جيوشهم من الفرس ، مما ترك مجالاً للحضارة الفارسية أن تؤثر في مجتمع العرب ، وظهر ذلك - واضحاً في التقاليد والعادات ، وفي الملابس والمأكول والحفلات ، وشاعت حرية الرأي ، وخاض كثير من الناس وكثير من العوام - في أمور ما كانوا - من قبل - يجرؤون على الخوض فيها ..

وهنا .. وجدت الأجناس غير العربية ، فرصتها السانحة ، للتنفيس عن حقدِها المكبوت على العرب ، ووجد الفرس في حضارة قومهم ، وفي علو مكانتهم ، مجالاً خصباً للتهجم على كل ما هو عربي ، والسخرية من عادات العرب ، وسلوكهم في مطاعمهم ومشاربهم ، وبدأ صوت الشعوبية الهامس المبجوح .. يتلمس طريقه إلى الضجيج والصياح ، ولنستمع إلى بشارين بردي يفتخر بقومه الفرس ، ويسخر من العرب وعاداتهم ومطاعمهم ، يقول : (٢)

هَلْ مِنْ رَسُولٍ مُخْبِرٍ عَنِّي جَمِيعَ الْعَرَبِ؟!
مَنْ كَانَ حَيًّا مِنْهُمْ .. وَمَنْ ثَوَى فِي التُّرْبِ
جَدِّي الَّذِي أَسْمُو بِهِ .. كَسْرَى ، وساسانُ أَبِي

(٢) ديوان بشارين برد ج ١ ص ٣٧٧، ٣٧٨ شرح: محمد الطاهر بن عاشور- الطبعة الثانية لجنة

التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٦٧ م .

- الأُنسوس : الجريء في القتال .
- الهبانيق .. جمع هُبْتُوق : الخادم أو الوصيف .
- أقطاب .. جمع قطيبة : لبن الشاة المخلوط بلبن الناقة .
- العلب : أقداح من جلد ، لا تتكسر ، يشرب فيها الفقراء .
- الورل : دويبة صحراوية مثل الضب . ومنضنض : متحرك .
- التقعص : اصطياذ الضب . الحزب : الأرض الغليظة .
- مُفَحَّجاً : مباعداً بين فخذه يتلقى الذفء .

أَشْوَسُ - فِي مَجْلِسِهِ - يُجْنَى لَهُ بِالرُّكْبِ
يَسْعَى الْهَبَانِيْقُ لَهُ .. بِأَنْبِيَاتِ الذَّهَبِ
لَمْ يُسَقْ أَقْطَابَ سَقَى .. يَشْرِبُهَا فِي الْعَلَبِ
وَلَا حَدَا - قَطُّ - أَبِي .. خَلْفَ بَعِيرٍ جَرَبِ
وَلَا أَتَى حَنْظَلَةً .. يَسْقُبُهَا مِنْ سَغَبِ
وَلَا شَوَيْنَا وَرَلَا .. مُنْضِنِضًا بِالذَّنْبِ
وَلَا تَقَعَصْتُ .. وَلَا أَكَلْتُ ضَبَّ الْحَزْبِ
وَلَا اصْطَلَى - قَطُّ - أَبِي .. مُفَحَّجًا لِلْهَبِ
إِنَّا مُلُوكٌ .. لَمْ نَزَلْ فِي سَالِفَاتِ الْحَقْبِ

وَيَقُولُ بشارٌ - أيضاً : (٣)

إِذَا انْقَلَبَ الزَّمَانُ .. عَلَا لَعْبَدِي وَسَفَلُ الْبَطَارِيْقِ الْكِبَارِ
أَحِينَ لَبِسْتُ بَعْدَ الْعُرْيِ خَزَاً وَنَادَمْتُ الْكِرَامَ عَلَى الْعُقَارِ ؟
تَفَاخَرُ .. يَابْنَ رَاعِيَةَ وَرَاعِ بَنِي الْأَخْرَارِ .. حَسْبُكَ مِنْ خَسَارِ
وَكُنْتُ - إِذَا ظَمِئْتُ إِلَى قَرَا حِ شَرِكْتُ الْكَلْبَ فِي وَلَغِ الْإِطَارِ
وَتَغْبِطُ شَاوِي الْحَرْبَاءِ ، حَتَّى تَرُوحَ إِلَيْهِ مِنْ حُبِّ الْقَتَارِ

وَيَقُولُ أَبُو نَوَاسٍ : (٤)

دَعِ الْأَطْلَالَ تَسْقِيهَا الْجُنُوبُ وَتُبْلِي عَهْدَ جَدِّيْهَا الْخُطُوبُ
وَحَلْ لِرَاكِبِ الْوَجْنَاءِ أَرْضاً تَخْبُ بِهَا النَّجِيبَةُ - وَالنَّجِيبُ
بِلَادَ نَبْتِهَا عُسْرٌ وَطَلَحَ وَأَكْثَرُ صَيْدِهَا ضَبْعٌ - وَذَيْبُ
وَلَا تَأْخُذْ عَنِ الْأَغْرَابِ لَهَوَاً وَلَا عَيْشَاً .. فَعَيْشُهُمْ جَدِيبُ
دَعِ الْأَلْبَانَ يَشْرَبُهَا رِجَالٌ رَقِيقُ الْعَيْشِ بَيْنَهُمْ غَرِيبُ
إِذَا رَابَ الْحَلِيبُ .. قَبْلَ عَلَيْهِ وَلَا تُحْرَجْ فَمَا فِي ذَاكَ حُوبُ

(٣) ديوان بشار بن برد ج ٤ ص ٥١ ، ٥٢ .

(٤) ديوان أبي نواس ص ٣٥ - تقديم : علي فاعور - الطبعة ١ - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٧ م .

وهكذا كان للشعوبية .. في تيارات الأدب العباسي - وفي اتجاه بعض شعرائه -
شأن خطير .

(ج) الثراء الترف : ولكي تكتمل ملامح الصورة - آنذا - في مجتمعات العصور العباسية
لم ينس الدارسون الغنى الطائل ، والثراء العريض ، الذي كانت ترفل فيه بغداد ،
وغيرها من المدن العربية - إبان تلك القرون ، حيث عاش العرب عيشة ناعمة
مترفة ، نقلتهم من مضارب الخيام ، على رمال الصحراء ، إلى القصور ذات الحدائق
الغناء ، يتدفق الذهب في أيديهم بلا حساب ، فيغريهم بالانصراف إلى اللهو والعبث ،
وإلى المتعة واللذة .

ولقد أثرى كثير من الشعراء والأدباء ، من وفرة ما كان يغدق عليهم من عطايا
بلا حساب ، ومن هبات تفوق الخيال ، فقد منح الخليفة المهدي .. مروان بن أبي
حنيفة الشاعر ، مئة ألف درهم ، على قصيدة مدحه بها ، وفيها يقول : (٥)

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم ؟! أو تسترون هلالها ؟!
أو تحقدون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبي ، فقالها ؟!
شهدت من الأنفال آخر آية بترائهم ، فأردتم إبطالها !!
بل يقال : إن المهدي - حين سمع تلك الأبيات .. زحف من صدر مصلاة ، حتى
صار على البساط ، إعجاباً وتقديراً ، ثم قال لمروان الشاعر : كم هي ؟
قال : مئة بيت .

فقال الخليفة : أعطوه بكل بيت ألف درهم .

(٥) راجع : الأغاني ص ٣٥٥١ ، ٣٥٥٢ . ويريد بآية الأنفال قول الله تعالى :
" والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ، وأولو الأرحام بعضهم أولى
ببعض في كتاب الله ، إن الله بكل شيء عليم . " (سورة الأنفال - آية ٧٥) .

كما مَنَحَهُ ابْنُهُ .. الخليفة الهادي ، على قصيدة أخرى ، مئة وثلاثين ألف درهم ،
وفيها يقول : (٦)

تَسَابَهَ يَوْمًا بِأَسِيهِ - وَنَوَالِيهِ فَمَا أَحَدٌ يَدْرِي لِأَيِّهِمَا الْفَضْلُ

وَكَثُرَتْ عَطَايَا الرَّشِيدِ لِلشَّعْرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ ، وَلِلْقَضَاةِ وَالْفُقَهَاءِ ، مِنْ أَمْثَالِ أَبِي
يُوسُفَ ، وَالْأَصْمَعِيِّ ، وَالْكَسَائِيِّ .. يَقَالُ : إِنَّ الرَّشِيدَ طَرَبَ - يَوْمًا لَغْنَاءَ مُخَارِقٍ ،
فَأَقْطَعَهُ ضَيْعَةً وَدَارًا ، وَوَصَلَهُ بِثَلَاثَةِ آلَافِ دِينَارٍ .. أَمَّا مُغْنِيهِ - الْأَثِيرُ عِنْدَهُ - إِبْرَاهِيمُ
الْمَوْصِلِيُّ ، فَيَقَالُ : إِنَّ صِلَاتِهِ لَهُ .. تَجَاوَزَتْ مِئْتَيْ أَلْفِ دِينَارٍ . (٧)
وهكذا .. قد سارَ على تلك الوتيرة الخلفاء العباسيون ، ووزراؤهم ، والقوادُّ ،
والولاةُ ، ووجهاء الناس .

وَيُصَوِّرُ لَنَا التَّارِيخُ .. أَلْوَانَ الْبَذْخِ وَالْإِسْرَافِ ، الَّتِي كَانَ يَحْيَاهَا خُلَفَاءُ بَنِي
الْعَبَّاسِ ، وَمَنْ حَوْلَهُمْ ، فِي صُورٍ تَدْعُو إِلَى الْإِنْبِهَارِ وَالذَّهْشِ ..
فَهَارُونَ الرَّشِيدُ - مَثَلًا .. حِينَ تَزَوَّجَ زَبِيدَةَ ، كَانَ يَمْنَحُ أَوَانِي الذَّهَبِ مَمْلُوءَةً
فِضَّةً ، وَأَوَانِي الْفِضَّةِ مَمْلُوءَةً ذَهَبًا ..
وَابْنُهُ الْمَأْمُونُ .. حِينَما تَزَوَّجَ بُورَانَ .. بَنَتْ الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ ، دَفَعَ لَهَا لَيْلَةً
زَفَافِهَا - أَلْفَ حَبَّةٍ مِنَ الْيَاقُوتِ النَّادِرِ .
وهذا الثَّرَاءُ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُغْرِيَ عَلَى الْإِنْتِمَاسِ فِي اللَّهْوِ وَالتَّرَفِ ، لَذَا .. شَاعَتْ
مَجَالِسُ الْغِنَاءِ وَالْخَمْرِ ، وَنَالَ النَّاسُ قِسْطًا وَافِيًا مِنَ الْحَرِيَّةِ ، فِي مُمَارَسَةِ حَاجَاتِ
الْحَيَاةِ .

وإلى جانب هذا الذي قَدَّمْنَا .. أَدَّى الثَّرَاءُ الْهَائِلُ ، إِلَى اتِّسَاعِ التَّرْجَمَاتِ وَتَنَوُّعِهَا ،
وَمِنْ ثَمَّ إِلَى تَطَوُّرِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ ، وَنَهْضَةِ الْفُنُونِ وَالْآدَابِ .. وَمَعَ رُقْيِ الْحَرَكَةِ

(٦) المَصْدَرُ السَّابِقُ ص ٢٥٤٤ .

(٧) المَصْدَرُ نَفْسُهُ ص ١٨٣٦ .

العلمية ، وانتشار الحضارة .. تَفَتَّحتْ أُخيلةُ الشعراء ، على مرآتي الحياة الجديدة ، وتفرَّغَ العلماء والأدباء والفنانون ، لإجادة أعمالهم وصقلها ، بعيداً عن قسوة الحياة ، ومُتطلِّباتها المعيشية ، وتنفَّسوا الحرية ، في ذلك الجوَّ الطليق الرَّحِب ، الذي تلاقت فيه مذاهبُ الفكر ، وعناصرُ الثقافة ، ونزعاتُ التحرُّر ، ومستحدثات الحضارة .

التأثيرُ الفارسي :

ويرى المؤرخون - وعلماء الاجتماع .. أن التأثيرات الاجتماعية والثقافية كانت أسرع استجابةً ، وأشدَّ وضوحاً ، في المجتمع العباسي ، من التأثيرات السياسية ، حين انتقلت عاصمة الخلافة إلى أحضان الفرس ، بحيث صارت بغداد - آنذاك - من أوثق البيئات اتصالاً بحياة العجم ، وتأثراً بهم ، فقد انتقلت على أرض الدولة العربية ألوانٌ مختلفةٌ مختلطة ، من العناصر والأجناس ... فإلى جانب العرب - كان الفرس والروم ، وكان النبط والترك ، وكان الهنود والأحباش ، وكان البربر والفرنج ، وغيرهم ..

ويكفي .. أن يتصور المرء ، نشاط هذا المزيج الهائل ، من الأخلاط البشرية ، ذات المشارب المختلفة ، والثقافات المتنوعة ، حتى يتبين .. ما يمكن أن يؤدي إليه ، من تغيرات .. في طبيعة التفكير ، وقيم الأخلاق ، ومنازع السلوك .

كان لكل جنس تقاليده وعاداته ، وكان لكل عنصر أخلاقه ومبادئه ، وللمُعاشة والاختلاط - حتماً - أثرهما العميق .. في تغيير المزاج النفسي ، والاجتماعي ، والخلقي ..

وإنه لمن الصَّعْب - حقاً .. أن يتصور المرء أن الشخصية العربية ، ظلت بمنأى - وسط تكلم الأمشاج - أن ينالها شيء من التأثير ، ولعل هذه التغيرات .. هي التي تفسر لنا .. ما نراه في الشعر العباسي ، من اتجاهات ، لا تتلاءم مع شخصية العربي الحق ، ومن مظاهر ، لا تتسجم مع الروح العربية الأصيلة ، التي انفعلت

بِقِيَمِ الصَّحْرَاءِ ، ثُمَّ صَقَلَتْهَا تَقَافَةُ الْقُرْآنِ ، وَغَذَّاهَا دُرُّ السَّمَاةِ فِي الْإِسْلَامِ .
وإن تكن الثقافات الأجنبية قد أسهمت - بحق - في تطور الفكر الإسلامي ، ومع أنه
لن يصعب على الدارس - أبداً .. أن يُمَيِّزَ الملامح التي يمكن ردها إلى رُوح غربية
عن العرب المسلمين ، كظاهرة الذندقة - مثلاً - التي تفتت في العصور العباسية ..
حيث ترجع - في أساسها - إلى أصول في الديانات الفارسية القديمة ، وما تلكم
المذاهب المتعددة في علم الكلام إلا صدَى يرتد في بعض جوانبه - إلى عقائد في
تلك الديانات .

ومع التسليم بهذا الدور الثقافي العدي .. يمكن القول : إن التأثير الفارسي في
الحياة العربية .. كان أكثر إثارة ، وأوضح بياناً ، في المجال الاجتماعي ، حيث
يبرز فيه الباحثون مظاهر شتى ، ويُعدِّدون أنماطاً متنوعة من السلوك ، وألواناً
مختلفة من الأنظمة والعادات ، اقتبسها المجتمع العربي من الفرس .
ولكن .. مادام الأمر يتعلق بالأدب ، وهو الذي يهمننا بالدرجة الأولى ، فلا بأس من
أن نذكر - هنا - بعض الاتجاهات الفنية الواضحة ، التي ظهرت في شعر العصور
العباسية ، وكانت - في معظمها - انعكاساً مباشراً من الأدب الفارسي ، أو الحياة
الفارسية .

الاتجاه الماجن :

ذلك .. الذي تزعمه ، وحمل لواءه ، بشَّار بن بُرْدٍ ، الشاعر الفارسي المشهور ،
ثم سار على نهجه طائفة من الشعراء ، طبع شعرهم - في معظمه بطابع المجون ،
والتعمق في وصف اللذائذ الحسية ، والتعري المكشوف ، والغزل بالمذكر ،
والإسراف في الحديث عن الخمر ، ووصف مجالس النشوة والغناء ، وغير ذلك من
موضوعات ، عالجها - شعراً - أمثال أبي نواس ، ومطيع بن إياس ، وصريع
الغواني ، وأشباههم ، ممن فاضت دواوينهم بذلك النهج الشعري غير الملتمزم
بأعراف العرب ، وقيم المجتمع المسلم .

قد يقال .. إنَّ الحديثَ عن الخمر ، وأنواعها ، ولذائِذها ، والحديثَ عن النساءِ ، والشَّغفِ بجمالهنَّ .. ليس بِدُعَا في الشَّعرِ العباسيِّ ، وليس أمراً جديداً فيه ، وإنما هي موضوعاتٌ واردةٌ في الشعرِ العربيِّ ، طرقها شعراءُ العصرِ الجاهليِّ ، وصدرِ الإسلامِ ، والعصرِ الأمويِّ ..

وهذا جدٌ صحيح ..

ولكنَّ التَّغييرَ الذي طرأ هنا .. هو ما اتَّسمتْ به تلك الموضوعاتُ من تنوُّعٍ في العرضِ ، وإحاطةٍ بالتفاصيلِ ، في جُرْأةٍ مكشوفةٍ ، لا تتماشى مع الذَّوقِ الاجتماعيِّ العامِ ، ولا مع القيمِ الأخلاقيةِ العربيةِ .

فإذا كان الشعرُ العربيُّ - من قَبْلُ - قد عرفَ الغزلَ ، ووصفَ الخمرِ .. فإنَّه قد تناولَ ذلكَ ببساطةٍ مُستمدَّةٍ من البيئةِ التي نشأ فيها ، وبقدَرٍ ما من المُحافظةِ ، يُسائرُ تقاليدَ تلك البيئةِ وأخلاقها ..

وليستَ الحياةُ العربيَّةُ - في جاهليَّتها وإسلامها - تشبهُ تلكَ الحياةَ الفارسيَّةَ اللَّاهيةَ ، التي اصنطختْ - على طولِ تاريخها - بفنونِ التَّرفِ ، وألوانِ مُنوعةٍ من المُتعةِ واللَّذَّةِ .. وليس الميراثُ الثقافيُّ .. الذي تكوَّنتْ به عقليةُ الشاعرِ العربيِّ على قَدَرِ ذلكَ الميراثِ الحضريِّ ، الذي تراكمَ في عقليةِ الشاعرِ الفارسيِّ ..

وأخيراً .. ليستَ القيمُ الأخلاقيةُ ، التي شَبَّ عليها إنسانُ الصحراءِ العربيَّةِ ، وبُنِي على أساسها المُجتمعُ البدويُّ المُتواضعُ .. من نوعِ تلكَ القيمِ ، التي تَرَبَّى عليها المُجتمعُ الفارسيُّ المُتمدَّنُ ، فكانَ الانكشافُ والتَّعريُّ شيئاً عادياً فيه ..

ومن هنا .. فإنَّ حديثَ امرئِ القَيْسِ ، أو ابنِ أبي ربيعةَ عن المرأةِ ، مهما وصلَ - أو بالغَ .. يختلفُ عن حديثِ شاعرِ فارسيٍّ كبشَّار .. كما أنَّ وصفَ الأعشى للخمرِ .. لا ينبغي أن يُوازنَ بوصفِ أبي نواس ..

فكلُّ يُمثِّلُ ميراثه .. أخلاقه ، وثقافته ، وأعرافَ مُجتمعه .

أضف إلى ذلك .. أنك لو رجعت إلى دواوين الشعراء العرب ، قبل
العصور العباسية - جاهليين وإسلاميين - لا تكاد ترى فيها مكاناً مخصصاً لوصف
الخمير ونشوتها ، ولا تُصادف قصيداً عامداً إلى المُجون ، أو الغزل الحسيّ
المكشوف ، كما تقرأ ذلك في دواوين المُحدثين ، مثل بشّار ، وأبي نواس ، فديوان
الأخير .. يكاد يُستغرق في خمريّاته ، ومُجونه ، وغزله .

والغزل بالمذكّر .. موضوع جديد ، لم يُعرف - في المُجتمع العربيّ - إلا على
أسنّة هؤلاء الشعراء العابثين ، الذين أفرّدوا له قصائد طويلة ، أتوا فيها ببِدَعٍ ينفّر
منها الذوق العربيّ ، والخلق الإنسانيّ ، وعمر بن أبي ربيعة شاعر الغزل الأول ..
مهما أطلّ الحديث عن غوانيه ، أو قصّ مغامراته معهنّ ، أو استنفذ طاقته الفنيّة
في التّعني بجمالهنّ لا يبلغ مبلغ أبي نواس ، إذ يتهنّك ويصف غلامه ، فيقول : (٨)

فَالوَجْهَ بَذَرْتَهُامِ بَعَيْنَ ظَنِّي فَلَاةَ
وَالجِدَّ جِيذَ غَزَالٍ وَالْغَنَجَ غَنَجَ فَتَاةَ
مُذَكَّرٌ حِينَ يَبْدُو مُؤَنَّثُ الْخَلَوَاتِ

فهذه نزعة شاذّة ، لم يكن لها وجود قبل بشّار وأبي نواس ، أو بعبارة أخرى ..
قبل أن يتسلّط الروحُ الفارسيّ - بحضارته وثقافته - على الحياة العربيّة ، ويغمرها
بتلك الاتجاهات ، التي باعدت بينها وبين طابعها الصحراويّ الأصيل ، وما تزيّن
الغلمان كالنساء ، وتعشّقهم من قبل الرجال ، والتسرّي بهم ، إلا أثر من آثار التهنّك
والخلاعة ، الخارجة على أخلاق العرب ، والغريبة عن المنطقة العربيّة ، يقول
أحدهم - ساخراً من تلك الأويئة المُستوردة :

إِنَّ أَوْلَادَ السَّرَارِي كَثُرَتْ - يَارَبَّ - فِينَا
رَبِّ ، أَدْخَلْنِي بِلَاداً لَا أَرَى فِيهَا هَجِينَا

(٨) ديوان أبي نواس ص ١٠٨ .

أضف إلى ذلك .. أن الإكثار من الجوّاري صار أمراً شائعاً في قصور الخلفاء ،
والأمراء ، وكبار رجال الدولة ، وفي بيوت العامة ، بل كان منهم - في بعض المنازل
مئات ..

وغير ذلك .. من أمور ماجنة ، لا يمكن تفسيرها ، إلا بأنها انعكاس لتلك البيئة ،
التي زخرت بصنوف من الناس ، وضروب من الأخلاق .

إن الذي يهتم الدارس الأدبي - إن كان له من مآرب هنا .. أن هذه الحياة
الاجتماعية المترفة الماجنة ، قد شجعت على بروز اتجاه في الأدب العباسي ، تميّز
بموضوعاته المحببة إلى الماجنين ، وبالتعبير عن أهوائهم الخاصة ، فلم يُعَن
بالأغراض الشعرية الجادة ، قدّر عنايته بموضوعات تشغل أذهان جمهوره ،
كالخمر وأوصافها وسفقاتها ، والغزل الفاحش ، والوصف الجنسي المكشوف ، وما
إلى ذلك من أغراض ، قد تخذش حياة البدوي الأصيل ..

ومن أشهر شعراء هذا الاتجاه .. حمادُ عجرد ، المتوفى سنة ١٦١هـ ، وبشارُ
بن بُرْدٍ ، المتوفى سنة ١٦٨هـ ، ومطيعُ بن إياس ، المتوفى سنة ١٧٠هـ ،
وأبونواس - الحسنُ بن هانئ ، المتوفى سنة ١٩٨هـ ، ومسلمُ بن الوليد - صريعُ الغواني ،
المتوفى سنة ٢٠٨هـ ، والحسينُ بن الضحّاك ، المتوفى سنة ٢٥٠هـ .

والحق يُقال .. إن هذا الاتجاه - على الرغم من حرصه على تحقيق الشعبية في
الموضوع ، وتهنّكه في المضمون - ظلّ محافظاً على مثالية الأداء ، وأشكال التعبير
والتصوير ، ولم ينحرف شعراؤه عن طلب الجزل من الألفاظ ، والعربيّ الجيد من
العبارات والأساليب .

ومهما يكن من أمر .. فقد جنح العباسيون - عموماً - إلى الحياة المترفة اللاهية
ويستوي - في الإقبال على الانفلات والعبث - الحكام والعامة .. فعلى الرغم من إظهار
الخلفاء غيرتهم على الدين ، وحرصهم الشكليّ على تعاليم الإسلام ، فإنهم جرّوا في

مضمار الحضارة الوافدة ، فكانوا يعقدون في قصورهم - مجالس الغناء والطرب ،
تدور فيها - أحياناً - كاسات الخمر ، ويحضرها كبار المغنين والشعراء .

ولئن كان يلتزم في هذه المجالس .. نوع من الحشمة ، رعاية لهيبة الخلفاء ،
فإن هذا التحشم كان يسقط في المجالس الخاصة .

وبذا .. أدى اللهو إلى المرح ، والمرح إلى المجون ، والمجون إلى التهلك
والخلاعة ، حتى لقد أضحت البيئة العباسية تربة صالحة ، لنمو كثير من مفايد
الحضارة الفارسية ..

(د) الزهد والورع : وعلى الطرف المقابل .. نجد ألواناً من الزهد والتقوى ، في
بعض بينات هذا العصر ، وخاصة في أوساط المتصوفة ، وبعض العلماء ، بل بين
جماعات من العامة أيضاً ..

وهذا أمر طبعي .. حتمه تقدم الدراسات الدينية ، في الفقه والتفسير والحديث ،
وازدهار الدور الاجتماعي والثقافي للمسجد - آنذاك ، كما جاء الاتجاه الزاهد .. رد
فعل للحياة اللاهية العابثة ، التي تفشت - كثيراً - في مجونيات تلك العصور .
ولقد وجدت هذه الطبقات الزاهدة أدباً ، يعبر عن أفكارها وعواطفها ، واشتهر
بهذا - من الشعراء - أبو العتاهية - اسماعيل بن القاسم ، المتوفى سنة ٢١١هـ ، في
الشرط الثاني من حياته ، حيث غلب على نتاجه - وقتئذ - الوعظ ، والدعوة إلى ترك
ملذات الدنيا .

ومن يدرس شعر أبي العتاهية ، سوف يجدّه يمثلّ اتجاهاً في الأدب ، يميل إلى
الشعبيّة في الشكل والمضمون كليهما ، وشعره يشبه - من بعض الوجوه - شعر
العبّاس بن الأحنف ، المتوفى سنة ١٩٢هـ ، وإن كان ابن الأحنف .. قد قصر
شعره على الغزل .

وإذا كان بشار وأبونواس .. قد قادا الشعراء إلى تيار المجون ، فإنه يمكن القول :
إن أبا العتاهية قد قادهم إلى الطرف المقابل ، وهو اتجاه الزهد .

وزَهْدُ أَبِي العَتَاهِيَةِ - وَمَنْ لَفَّ لَفَّهُ - لَيْسَ زَهْدًا سَطَحِيًّا ، يَقُومُ عَلَى فِكْرَةٍ بَسِيطَةٍ ،
كَمَا قَدْ يَبْدُو لِلْقَارِئِ - لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ زَهْدٌ غَائِرٌ فِي النَّفْسِ ، يَرْتَكِزُ عَلَى أُسُسٍ
عِلْمِيَّةٍ ، وَنَزَعَاتٍ فِلْسُفِيَّةٍ ، بِقَدَرٍ مَا يَعْتَمِدُ عَلَى عَقِيدَةٍ دِينِيَّةٍ ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْفَارَقُ بَيْنَ
زَهْدِ أَبِي العَتَاهِيَةِ ، وَبَيْنَ أَلْوَانٍ أُخْرَى مِنَ الزَّهْدِ ، عَرَفَهَا الْمُجْتَمَعُ الْعَرَبِيُّ ، قَبْلَ تِلْكَ
الْعَصُورِ الْعَبَّاسِيَّةِ .

وَإِنَّ الَّذِي يُرَاجِعُ دِيوَانَ أَبِي العَتَاهِيَةِ .. سَوْفَ يَرَى مَبْلَغَ دِقَّتِهِ فِي تَصْوِيرِ مَعَانِيهِ ،
وَمَدَى عُمُقِ فِلْسُفِيَّتِهِ ، الَّتِي بَنَى عَلَيْهَا زَهْدَهُ ، اسْتَمَعَ إِلَيْهِ حِينَ يُصَوِّرُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا: (٩)

حَيَاتُكَ أَنْفَاسٌ تَعْدُ .. فَكَلِّمْنَا مَضَى نَفْسٍ مِنْهَا .. نَقَصْتَ بِهِ جُزْءًا
يُمِيتُكَ مَا يُحْيِيكَ .. فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَيَحْدُوكَ حَادٍ .. مَا يُرِيدُ بِكَ الْهَزْءَ

وَيَقُولُ .. فِي تَحْقِيرِ مَتَاعِ الْحَيَاةِ الزَّائِلِ ؛ إِذِ الدُّنْيَا لَيْسَتْ لِلْبَقَاءِ ، وَإِنَّمَا هِيَ دَارُ
رَحِيلٍ وَفَنَاءٍ : (١٠)

جَمَعُوا .. فَمَا أَكَلُوا الَّذِي جَمَعُوا وَبَنَوْا مَسَاكِنَهُمْ .. فَمَا سَكَنُوا
فَكَانَهُمْ ظَعْنٌ .. بِهَا نَزَلُوا لَمَّا اسْتَرَاخُوا - سَاعَةً - ظَعَنُوا

وَهَذَا أَثَرٌ مِنْ أَثَارِ الثَّقَافَةِ الْفَارِسِيَّةِ ، الَّتِي طَوَّرَتْ مَنَاحِجَ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ ، وَأَمَدَّتْ
تِلْكَ الشُّعْرَاءَ بِزَادٍ مِنَ الْمَعَارِفِ الْفِلْسُفِيَّةِ - وَالْعَقِيدَةِ - جَدِيدٍ ، تَجَلَّتْ مَظَاهِرُهُ فِي
نَتَاجِهِمْ .

*** ** *

(٩) دِيوَانُ أَبِي العَتَاهِيَةِ ص ٢٦٠ مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت ١٨٨٦م .

(١٠) المصدر السابق ص ٢٧٣ .

٢- العصر العباسي الثاني (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ) :

ويعرف عند المؤرخين : عصر النفوذ التركي ..

ويبدأ من خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ هـ ..

وينتهي باستقرار البويهيين في بغداد سنة ٣٣٤ هـ .

وإذا كان الفرس .. لم يتمكنوا من حجب النفوذ العربي ، في العصر السابق ، فقد تمكن الأتراك - هنا - من العبث بهيبة الخلافة ، ووقع الخلفاء وأولادهم - فريسة ضعيفة ، في أيدي الأتراك الخدم ، الذين امتلأت بهم بغداد ، منذ نهاية القرن السابق ، على أيام حكم المعتصم ، ذلك الشاب اللاهي الذي استكثر منهم ، واستعان بهم ، وهياً لهم شيئاً من التحكم والسيطرة ، فصارت كلمتهم مسموعة ، بعد أن كانوا سعاة ، وخراساً ، وخداماً ، لا يجرون على رفع رؤوسهم ، تجاه سلطان الخلفاء الأول .

ولقد ساعد على انتشار هذا الخطر التركي .. ما كان في سياسة المتوكل من خيال وطيش ، حين حارب حرية الفكر ، وفكك بالمعتزلة ، وأهان الشيعة العلوية ، فتقلص أعوانه من الفرس المشيعيين ، وأحل - محلهم أولئك الأتراك الطغام ، الذين ضحوا به أول ما بدأوا ، حين أغروا ابنه المنتصر بقتله .. فقتله ..

ومنذ ذلك الحادث المهيئ .. اجترأ الخدم على الخلفاء - بعده ، فسلموا عيني الخليفة المستكفي ، وحبسوا الخليفة القاهر ، بل وقتلوا بعضهم بأيديهم ، حتى صار الخلفاء كالدُمى ، في أيدي الحجاب الأتراك .

استولى الأتراك الهمج - منذ قتل المتوكل - على مقاليد الأمور في الدولة ، وكان الخليفة أسير إرادتهم ، إن شاءوا أبقوه ، وإن شاءوا خلعوه ، وإن شاءوا صفوا ماء عينيّه ، أو شاءوا قتلوه ١٠

ويصور لنا مبلغ نفوذ الأتراك .. وتحكمهم في مصائر الخلفاء ، ما يروى .. من أنه لما ولي المعتز الخلافة ، جلس خواصته ، وأحضروا المنجمين ، وسألوهم :

- كم يعيشُ الخليفةُ ؟!

وكم يبقى في الخلافةِ ؟!

فقال أحدُ الظرفاءِ الجالسينَ :

- أنا أعرفُ من هؤلاءِ المنجمينَ .. بعمرِ المعتزِّ وخلافتهِ !!

فقالوا بلهفةٍ :

- إذنَ فقلْ .. كم يعيشُ الخليفةُ ؟! وكم يملكُ ؟!

فقال - في لهجةٍ ساخرةٍ متهمكةٍ :

- يبقى ويعيشُ ما أرادَ الأتراكُ .

فتبسّمَ الحاضرونَ غيظاً وحنقاً .

ومن بابِ التَّنَدُّرِ - أيضاً .. أنْ صوِّرَ أحدُ الشعراءِ ذلكَ التَّرَدِّيَ ، على عهدِ الخليفةِ

المستعينِ (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) ، حينَ قال ساخراً : (١١)

خليفةٌ في قَفَصٍ بينَ وَصِيفٍ وَبُغَا

يقولُ ما قالَ له كما يقولُ البَّبَغَا

أضفُ إلى ذلكَ .. أنْ هؤلاءِ الأتراكَ ، ما كانوا على شيءٍ من الحضارةِ ، أو
الثَّقافةِ والمعرفةِ ، فارتدَّ وجهُ الحياةِ العباسيةِ بعدِ ابتسامٍ ، وانحسرتِ العلومُ ،
وتراجعتِ العذوبةُ ، التي عاشها الناسُ في القرنِ السابقِ ، وسارتِ الدولةُ إلى حياةٍ
جاذةٍ ، فيها عبوسٌ ، وانتقلَ الناسُ من العصرِ الشعريِّ الخصبِ ، إلى عصرٍ متجهِّمٍ
قلقٍ ، يقلُّ فيه عطاءُ المبدعينَ ؛ لضيقِ مواردِ الدولةِ ، بسببِ كثرةِ الفتنِ والثوراتِ ،
والحركاتِ الانفصاليةِ ، تلكَ التي بدأتْ تمزقُ جسمَ الإمبراطوريةِ العباسيةِ ، إلى
دويلاتٍ مستقلةٍ ، وإماراتٍ وممالكٍ .

ومن هنا .. يمكن أن نتصور، أن هذا العصر لم يكن ليمثل البيئة الصالحة ،
لاستمرار حركة الازدهار العلمي والأدبي ، على النحو الذي كانت عليه ، في العصر
السابق ، ولذا .. تباطأت الدماء الحارة التي كانت تتدفق في شرايين الحركة الأدبية ،
إبان فترة السيادة العربية ، أيام كان الأدب له قداسته ، ولولا ما اتفق من ظهور عدد
من الشعراء والكتاب ، وهبوا نبوغاً وعبقريّة ، لخلا هذا العصر من النابهين ، في
ميدان الأدب ..

ولقد نصّ بعض الشعراء .. على تلك الحال ، وآلمه أن تتقوَّض دولة الشعر ،
واستمع إلى ابن الرومي - المتوفى سنة ٢٨٣هـ حين يقول :

ذهب الذين تهزهم مذاحهم هز الكماء عوالي المُران
كانوا إذا امتدحوا رأوا ما فيهم فالأريحية عندهم بمكان

بل صار من الاتجاهات ذات الصدى .. في شعر هذا العصر، الميل إلى الشكوى
والتفجع ، لذهاب دولة الأدب ، وانقضاء تلك الأيام ، التي كان الشعر فيها يثير النفوس ،
ويستنهض الهمم ، حيث الخلفاء والأمراء ، الذين يعرفون للشعر قدرة .. ويمثل ابن
الرومي هذا الاتجاه ، إذ يقول :

يا ماديح القوم اللئام ، وطالبا نيل الشحاح
ما أنت في زمن المديح ، ولا الهجاء ، ولا السحاح
فاشغل قريضك بالنسيب ، وبالفكاهة ، والمزاح

ومهما يكن الأمر .. فإننا نرى الأدب ، يظل على قدر كبير، من القوة والاتساع
والتنوع ، وتظل عبقرية بعض الشعراء والكتاب ترسل أشعتها ، وسط ظلمة الفساد
السياسي ، حيث خطا الشعر خطوة أوسع ، نحو المعاني الذهنية ، وظهرت فيه
العبارات الفلسفية ، كما وصل مذهب البديع - في هذا القرن - إلى قمة نضجه ، على
لسان الشاعر عبد الله بن المعتز ، المتوفى سنة ٢٩٦هـ ، واتجه بعض الشعراء إلى

الطبيعية ، ومشاهد العمران والحضارة ، ونبغوا في وصفها ، فجاءوا بكل رائق معجب ، تعبيراً وتصويراً ، وعلى رأس هؤلاء الشاعر الطائي ، أبو عبادة البحرى ، المتوفى سنة ٢٨٤هـ .

وعلى الجملة .. فقد كان العصر العباسي الثاني ، عصر انحسار نسبي في ميادين العلم والثقافة ، حيث شغل الحكام بأنفسهم ، وتوطيد ملكهم ، ومقاومة ثورة الأقاليم المختلفة ، فلم يلتفتوا إلى تشجيع العلم والعلماء ، أو الأدب والأدباء ، مثلما كنا نرى في العصر السابق .

٣- العصر العباسي الثالث (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) :

ويعرف باسم : العصر الذهبي للعلم والأدب .
ويحدّد - بدءاً - باستقرار البويهيين في بغداد سنة ٣٣٤ هـ .
ويحدّد - نهاية - بنزوح الدولة السلجوقية إلى بغداد سنة ٤٤٧ هـ .
وأبرز ما يلاحظ على هذا العصر .. أنه فترة يقظة علمية عامة ، شملت مظاهرها كل فروع العلم ، وأجناس الأدب ، وإذا كنا نسمي العصر العباسي الأول .. العصر الذهبي للإسلام ، من ناحية سلطان العرب السياسي ، فإنه يمكن تسمية العصر العباسي الثالث .. عصر سلطان العلم والأدب ، من ناحية نضج العلوم وتنوعها ، واتساعها وتقدمها ، حيث ظهرت - في هذا القرن الموسوعات العلمية الضخمة ، والتي تعدّ كل واحدة منها .. دائرة معارف للعصر ، وثقافته المختلفة ، كما وضعت أمهات الكتب الأدبية ، وتنوعت مناحي التأليف في كل فرع ، وتمثّلت في إنتاج الشعراء والكتاب مظاهر التأثيرات الثقافية ، التي نضجت - آنذاك - أيما نضج .

أما سبب هذه الانتفاضة العلمية - والأدبية ، فمرده في الواقع .. إلى ما عُرف به سلاطين بني بويه - وأمرؤهم - من حب للعلم والأدب ، ومن تقدير للعلماء والأدباء ، ورعاية لهم ، إلى درجة أنهم .. كانوا لا يختارون وزراءهم - وكبار موظفيهم ، إلا من عالم ، أو شاعر ، أو كاتب .

يضافُ إلى كلِّ ذلك - بل ويتقدَّمُهُ في الأهميَّة .. نشوءُ تلك الدويلاتِ ، التي استقلَّتْ عن الخلافةِ العباسيَّةِ .. أو كادتْ تستقلُّ ، فمنذُ أن ظهر النفوذُ التركيُّ في بغدادَ ، في أيامِ المعتصم ، ثم استشرى وتفاقمَ ، على خلافةِ المتوكِّلِ ومن جاء بعده ، بدأتْ مشاعرُ الفقهاءِ - والعلماءِ ، وأربابِ الأدبِ تتأزَّمُ من هذه الحياةِ ، التي سادَ فيها الأتراكُ الخدمُ ، ومن هنا .. بدأتْ طوائفُ العلماءِ والأدباءِ .. تفرُّ إلى أمصارٍ متفرقةٍ من العالمِ الإسلاميِّ ، وتستقرُّ في هذه الدويلاتِ ، التي بدأتْ تتنافسُ - كلها في إذكاءِ روحِ العلمِ ، والبحثِ والتأليفِ ، والأدبِ والشعرِ .

فبالإضافةِ إلى بغدادِ بني بُوَيْهٍ .. الحاضرةُ العظمى للعلومِ والآدابِ ، كانتْ قرطبةُ ، عاصمةُ الأمويين في الأندلسِ ، وحلبُ ، عاصمةُ الحمدانيين بالشَّامِ ، والقاهرةُ ، عاصمةُ الفاطميين في مصرَ ، وبُخارى وسَمَرْقَنْدُ ، عاصمتا الساسانيين فيما وراءَ النهرِ ، وغيرها من تلك المدنِ الكبرى ، التي حقَّقَ التنافسُ بينها أروعَ نتائجِ النجاحِ والتفوقِ .

ومن هنا .. زحرتْ بحارُ التأليفِ ، واطردَ تيارُها ، فتنامتِ العلومُ ، واستوتْ ناضجةً على سوقِها ، واستوعبَ العصرُ حكمةَ الفرسِ وأدبَهم ، وفلسفةَ اليونانِ ومنطقيهم ، ومواعظَ الهنودِ وقصصَهم ، وتأثَّرَ العقلُ العربيُّ بذلك كله ، وتمثَّلَهُ ، ثم فاضَ بعلمٍ غزيرٍ ، وحكمةٍ صافيةٍ ، وأدبٍ متقنٍ ، يركِّزُ على أصولٍ راسخةٍ من الثقافةِ والمعرفةِ .

ومن مقدَّمي الشعراءِ .. الذين يمثِّلون الروحَ العلميَّةَ ، في هذا العصرِ ، أبو الطيِّبِ المتنبِّي ، المتوفى سنة ٣٥٤هـ ، ذلك الشاعرُ القدُّ ، الذي اغترفَ من ثقافةِ عصرِهِ ، وأودعَ ذوبَ ذلك كله في شعرِهِ ، ثم كان .. أن زادَ هذا التيارُ العلميُّ العقليُّ بعده - غزارةً وعمقاً ، على لسانِ ذلك الفيلسوفِ .. العالمِ الشاعرِ - أبي العلاءِ المَعْرِي ، المتوفى سنة ٤٤٩هـ .

وإلى جانبِ هذين الفحليين .. تلمعُ أسماءٌ مضيئةٌ ، يستدعيهم ذكرُ العصرِ العباسيِّ الثالثِ ، من أمثال: أبي فراسٍ ، والسريِّ الرِّفَّا ، والشريفين .. الرُّضِي .. والمرتضي ،

وأبو بكر الخوارزمي ، وابن العميد ، وأبي إسحاق الصابي ، والصاحب بن عباد ،
وبديع الزمان الهمداني ، وغيرهم من الأعلام الرنانة ، الذين ماجت بهم البيئة
العباسية - إبان ذاك العصر - موجاً .

٤- العصر العباسي الرابع (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ) :

ويطلقون عليه : عصر الأتراك السلاجقة .

ويبدأ بدخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ .

وينتهي بزوال الدولة العباسية ، والقضاء على خلافتها في الشرق ، سنة
٦٥٦ هـ ، تلك السنة .. التي استولى فيها التتار على بغداد ، بزعامة القائد الهمجي
هولاكو المغولي .

وما كان هذا العصر الأخير .. ليمائل - قط - العصور السابقة .. على الأقل ..
من ناحية الطابع السياسي العام ، إذ كانت القرون العباسية - من قبل .. إما دولة
مركزية واحدة ، تجمع - في بغداد كل القوى والسلطات .. وإما دويلات صغيرة ،
منبثقة من الدولة الأم ، وتابعة لها ..

أما الآن .. فقد استقر الأتراك السلاجقة في بغداد ، واكتفوا بها ، غير عابئين -
سياسياً - بالهوة السحيقة ، بين الدولة الكبيرة الأم ، وتلك الدويلات الانفصالية .

ومن هنا .. فإن هذا العصر .. يعدُّ عصر انحدار ، يشابه - إلى حد بعيد -
الانحدار في العصر التركي السابق ، فليس لتلك الفترة شأو يذكر ، في الاجتهادات
العلمية ، أو الإبداعات الأدبية ..

إذ اتجه الأدباء - والشعراء - إلى اجترار الماضي وتقليده ، فشاعت الموازنا
والمعارضات ، والتخميس والتشطير ، والألعايب والصنعة اللفظية ، واتجه العلماء
إلى التلخيصات والمتون ، أو الجمع والحشد ، أو الشرح والتفسير ..

ومن ثم .. ظهرت تلك الموسوعات المشهورة ، الجامعة في فروع العلم والأدب .

بيد أنه .. من اللافت للنظر - حقاً .. انتشار المدارس في تلك الفترة ، ولعل أهمها - وأشهرها .. المدرسة النظامية ، التي أنشأها نظام الملك في بغداد ، وكان لها شأن كبير ، وصيت ذائع ، في أرجاء الدولة الإسلامية ..

ويكفيك - الآن - أن تعلم .. أن من أساتذة هذه المدرسة .. أبا إسحاق الشيرازي ، وأبأحمد الغزالي ، والسهروردي ، وابن الأثيري ، وغير هؤلاء .. من كبار العلماء والمثقفين .

ثانياً - النسق الفني :

ومن الباحثين .. من يفضل دراسة الأدب - في العصور العباسية - على أساس التقسيم الفني ، الذي يقوم - في جوهره - على التيارات الأدبية ، وما تستند إليه من قيم فنية ، عمودية تقليدية ، أو جديدة مستحدثة ، ومدى قبول هذا - أو ذاك - من النقاد والجمهور ، مع مراعاة تطور الظواهر الأدبية ، دون أن يهمل العامل التاريخي ، وتأثيره في هذه الدراسة .

وتبعاً لهذا المنهج .. يمكن تقسيم الأدب - في العصور العباسية - إلى تيارات ثلاثة .. هي :

١- التيار التجديدي :

وهذا التيار .. يمتد - في الزمن - ليشمل أدب العصر العباسي ، منذ بدايته سنة ١٣٢هـ ، حتى أواخر القرن الثاني الهجري . ويمثل هذا الاتجاه الفني .. عددٌ من شعراء تلك الحقبة ، مثل : والبة ابن الحباب ، وبشار بن برد ، وأبي نواس ، والحماديين الثلاثة : (حماد الراوية ، وحماد عجرد ، وحماد بن الزبرقان) ، ومطيع بن إياس ، ومن على شاكلة هؤلاء - وأولئك ، ممن يمكن اعتبارهم وحدة فنية واحدة .

ويلاحظُ الدارسُ لهذا التيارِ التجديديّ .. أنه ارتكز - بصفةٍ أساسيةٍ - على عناصرٍ غير عربيةٍ الأصل ، وجلُّهم شعراءُ ثاروا - بدرجاتٍ متفاوتةٍ - على التبعيةِ التقليديةِ ، للقصيدةِ العربيةِ القديمةِ ، واهتمُّوا بتصويرِ الترفِ واللَّهو ، ووصفِ مظاهرِ الحضارةِ في عصرهم ، مستهدفين - في نتائجهم أوزاناً شعريّةً أكثرَ بساطةً ، ومضامينَ جديدةً ، على معاني الشعر العربيِّ المألوفةِ ، كالغزلِ بالذكرِ ، والزندقةِ ، والمجونِ ، والتَّعَرِّيِّ ، وما إلى ذلك من أمورٍ تمسُّ حياةَ الإنسانِ العربيِّ المسلم .

٢- التيار التقليديّ :

ويمتدُّ هذا التيارُ - زمنياً .. من نهاياتِ القرنِ الثاني الهجريِّ ، ويكادُ يتلاشى .. مع العقدين الأخيرين ، من القرنِ الثالثِ للهجرةِ . ويمثِّلُ هذا الاتجاهُ المحافظُ - فيما نرى .. شعراءُ مثل : أبي تَمَّام ، والبحريريِّ ، وابن الروميِّ ، ومَن لَفَّ لفَهم من المبدعين ، الذين عادوا بشعرهم إلى الأصالةِ العربيةِ ، ممثلةً في عمودِ الشعرِ التقليديِّ ، وفي نماذج ما قبل العصر العباسيِّ . ولأنَّ هذا التيارَ العربيَّ الأصيلَ .. قد اقترنَ ببدايةِ ضياعِ الهيبةِ العربيةِ ، وتقلُّصِ نفوذِ الخلافةِ العباسيةِ ، بتسلُّطِ التَّركِ على مقدراتِ الأمور ، فإنَّه كان بمثابةَ ردِّ الفعلِ ، لتغلُّغِ العناصرِ غير العربيةِ في الحياةِ الأدبيةِ ، ومحاولةٍ مخلصَةٍ ، للعودةِ إلى النقاءِ العربيِّ ، ودعمِ تقاليدِ التعبيرِ الأدبيِّ ، والأصالةِ الشعريةِ ، باعتبارها من أبرز ملامحِ الهويةِ العربيةِ .

وليس أدلُّ على ذلك .. من أن يهتمَّ بعضُ ممثلي هذا التيارِ - بالإضافةِ إلى نشاطهم في الإبداعِ الشعريِّ - بتصنيفِ مختاراتِ شعريّةٍ ، تجمعُ الكثيرَ من روائعِ الشعرِ القديمِ ، مثلَ حماسةِ أبي تَمَّام ، وحماسةِ البحريريِّ .. وكأنهم - بذلك .. يقدِّمون للشعراءِ - وللناسِ - نماذجَ لما ينبغي أن يكونَ عليه الشعرُ ..

وليس من قبيل الصدفة - أيضاً .. أن يولوا عناية خاصة ، للجانب النقدي ، في تقويم الشعر ، بل أن يكون أبوتّمَام - والبحترّي من السابقين إلى نقد الشعر ، ومن المُوجّهين للشعراء ، المُتذوّقين لإبداعاتهم ، في عهد الدولة العباسيّة .

٣- تيّار الصنعة التركيبية :

أما التيّار الأخير .. فهو تيّار التجويد والتعقيد ، وإلزام الشعراء أنفسهم ما لا يلزم ، من مقومات العمل الفني ، إيثاراً للغموض والتعمية ، وتبياناً لقوة التحمل ، وإظهاراً للبراعة والتفوق ، في امتلاك ناصيتي اللغة والشعر .
ويمتدّ هذا التيّار - في الزمن .. منذ أواخر القرن الثالث ، حتى نهاية الدولة العباسيّة ، وسقوط بغداد في أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ .

ويحوز شعر البطولة - في هذا الطور - قدّم السبق ، وقمة الازدهار ، على لسان شاعر العربيّة الأكبر .. أبي الطيّب المتنبي ، كما يبلغ الشعر الفكري - والفلسفي - ذروته ، على يد شاعره المفكر العالم ، أبي العلاء المعري ..
أما الشعر العاطفي والديني .. فقد تمثّل في نتاج الشريف الرضي ، في حين يخطو ابن الفارض - بالشعر الصوفي - خطوات واسعة .

والدارس لشعر هؤلاء - الذين يمثلون القرون الأخيرة ، من عمر الدولة العباسيّة يجد نتائجهم يتّجه - في معظمه - اتجاهاً متقارباً ، من حيث .. تضاول روح التلقائية والبساطة ، التي كانت من أهمّ مميزات القصيدة العربيّة ، إذ مالوا في البناء الفني إلى التركيب ، التركيب في الأسلوب ، والتركيب في الصورة ، والتركيب في المعاني ، بل وفي موسيقى الشعر أيضاً ، كما يبدو واضحاً في لزوميات أبي العلاء ، من مثل قوله : (١٢)

(١٢) لزوم ما لا يلزم - أبو العلاء المعري ج ٢ ص ٢٤٣ .

- أشراك : أمالك .

- أدراك : دفعك .

أتراك - يوماً - قائلاً عن نيّة خلصت لنفسك : يالْجُوحُ تراك
أدراك دهركَ عن ثَقَاكَ بجهده فدراك من قبل الفَوَاتِ دراك
أبراك ربك فوق ظهرِ مطيّة سارت .. لتبلغ ساعة الإبراك
أفراكن - أنا - للزّمانِ بمُحصِدِ بانّت عليه شواهدُ الإفراكِ
أشراك ذنبك ، والمُهمِنُ غافِرٌ ما كان من خطايا سوى الإشراك

وقوله : (١٣)

رياضك - غيرُ دائمة - فروض نوافل - بعدَ إحكامِ الفُروضِ
أقارصك الشّهادة .. غيرُ برّ كلانا طاح في تلك القُروضِ
وما يأتيك بالأغراضِ خلّ ولا شدّ الرّواجلِ بالغُروضِ
وجسمُ المرءِ للأمراضِ ربعٌ فهل زكاهُ تركيةُ العُروضِ ؟!

ويُضحّ من خلال ما قدّمناه عن المنهج الفني ، أن دراسة أدب العصور العباسيّة ،
على أساس ثلاثة التّيارات الأدبيّة ، يمكن أن تختصر تاريخ الأدب العباسيّ كلّهُ ،
دون أن تربط هذه الفنون بالسياسة ربطاً أليّاً ، ومن غير أن تقطع - أيضاً - صلة الأدب
بأحداث العصور العباسيّة ..

بيد أنه .. ينبغي أن نراعي ما يلي :

- يجب ألاّ يُنظر إلى هذا التقسيم الفنيّ ، على أنه يمثّل فواصل قاطعة ، أو
حدوداً جامدة ، بين كلّ تيّارٍ والذي يليه ، فمن غير المقبول - أو المعقول القول : إن
بشاراً - وأبانواس - قد قطعاً صلتهما بالتراث العربي القديم كلياً ، لمجرد تصنيفهما
في التيّار التجديديّ ، إذ إنّ التقاليد الفنيّة - لعمود الشعر المحافظ - تظهرُ بوضوح
في غير القليل من شعرهما .

(١٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٨ .

- وعلى الجانب الآخر.. لا يحق لأي دارس ، أن يزعم أن البحتري يطابق
امراً القيس ، أو الحطيتة ، أو أن قصائد أبي تمام .. تماثل - تماماً - شعر الجاهليين
والأمويين - في الصور والأساليب ، وتعمق المعاني ، فقد تطورت هذه الوسائل الفنية
مع الزمن ، وبفعل الانفتاح الثقافي ، بل تعقدت العناصر المكونة للشعر - إلى حد كبير
إبان العصور العباسية .. أضف إلى ذلك .. أن أبا تمام التقليدي يمثل طوراً لا يسكت
عنه ، من أطوار العنصر العقلي والفلسفي ، في شعرنا العربي ، هذا العنصر الذي نما
ونضج ، حتى وصل إلى الذروة على ألسنة الشعراء الفلاسفة ، وفي شعر أبي العلاء
المعري .

ثالثاً - النسق التكاملي :

وترتيباً على ما سبق أن أشرنا إليه ، من أن نسقاً منفرداً قد لا يفي - أو هو
بالفعل لا يفي - بمتطلبات وضوح الصورة ، التفت الدارسون والنقاد بنظرة شمولية
إلى تلك النجاحات التي حققتها العلوم التطبيقية المختلفة ، بقصد استثمارها في حقل
الدراسات الأدبية والنقدية ؛ للوصول إلى الحقيقة .. فيما يطلق عليه النسق التكاملي ،
ذلك الذي يستفيد من كل الأنساق المتاحة لتخطيط صورة واضحة للفنون والآداب ،
حيث ينبغي ألا ننسج أمام نسق بعينه ، نتعصب له ، بعد أن وصل البشر بعلومهم
إلى شأو بعيد ، وأضحى الدنيا - بأسرها ، في ظل العولمة - تعب من جدول واحد ..
جدول واحد - فقط تصب فيه كل القنوات ..

إن التاريخ العام يعيننا على السير - خطوة خطوة - مع الأطوار الحقيقية المتنامية
للتيارات الأدبية في عصرنا ، بل إن السيرة الذاتية للمنتجين تفيدنا في سبر أغوار
شخصية الأديب ، ومدى تفاعلها مع أحداث عصره ..

فماذا عسى أن يكون أثر طفولة المتنبي - مثلاً - في تضخيم الأنا عنده ؟
هل يعود ذلك إلى نشأته المشبوهة كما يرى عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ؟

أَمْ إِلَى نَسَبِهِ الْمُتَمَيِّزِ كَمَا يَذْهَبُ الْأَسْتَازُ مُحَمَّدُ شَاكِرٌ؟
وَسِوَاءُ أَخَذْنَا بِهَذَا الرَّأْيِ - أَوْ ذَاكَ - فَإِنَّ مِفْتَاحَ الظَّاهِرَةِ يَكْمُنُ فِي سِيرَةِ أَبِي الطَّيِّبِ
الْأُولَى . (١٤)

والدراساتُ النَّفْسِيَّةُ تَسْعِفُنَا فِي تَحْلِيلِ الْعَوَاطِفِ ، وَقِيَاسِ مَدَى الصَّدَقِ وَالزَّيْفِ
فِيهَا ، وَتَكْشِفُ الشَّخْصِيَّةَ فِي أَبْعَادِهَا الْخَفِيَّةِ ، حَتَّى إِنَّهَا لَتُجَلِّي أَسْبَابَ إِجَادَةِ شَاعِرٍ مَا
فِي فَنِّ بَعِيْنِهِ ، كَالْخَنْسَاءِ وَالرِّثَاءِ ، وَابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ وَالْغَزَلَ ، وَأَبِي نُوَّاسٍ وَالْخَمْرَ ..
وَعِلْمُ الْجَمْتِمَاعِ الْأَدْبِي .. وَمَا لَهُ مِنْ دَوْرٍ بَارِزٍ فِي تَفْسِيرِ نَشْأَةِ الْأَجْنَاسِ الْأَدْبِيَّةِ ..
كَالْمِلْحَمَةِ وَارْتِبَاطِهَا بِالْمَجْتِمَعَاتِ الْبَدَائِيَّةِ ، وَالمَسْرُحِيَّةِ وَارْتِبَاطِهَا بِالْمَجْتِمَعَاتِ
الْحَضَارِيَّةِ ، وَالْقِصَّةِ وَنَمُوْهَا فِي الْمَجْتِمَعِ الْبَرْجَوَازِيِّ (١٥) ، وَسَوْفَ لَا نَنْسَى - هُنَا -
دَوْرَ فِلْسَافَةِ الْجَمَالِ ، وَأَنْسَاقِ التَّحْلِيلِ الْبِنَائِيِّ النَّصِّيِّ .. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عُلُومٍ
وَمَعَارِفَ - تَقِيْدُ فِي تَخْطِيْطِ صَوْرَةٍ مَدْمُجَةٍ لِلْأَدَابِ فِي خَمْسَةِ الْقُرُونِ الْعَبَاسِيَّةِ .

*** **

(١٤) انظر: المذاهب الأدبية د. ماهر حسن فهمي ص ٢١٩ دار قطري بن الفجاءة للنشر
والتوزيع - الدوحة - قطر ١٩٨٣ م .
(١٥) المرجع السابق ص ٢٢١ .

مصادرُ البحثِ ومراجعُهُ

- ١ - الأغاني - أبو الفرج الأصبهاني - تحقيق : إبراهيم الإيباري - مطابع دار الشعب .
- ٢ - تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان - ترجمة عبد الحليم النجار - الطبعة الثالثة - دار المعارف القاهرة ١٩٧٤ م .
- ٣ - تاريخ الشعر العربي حتي آخر القرن الثالث الهجري - د. نجيب البهيتي - نشر دار الثقافة الدار البيضاء سنة ١٩٨٢ م .
- ٤ - دائرة المعارف الإسلامية - طبع دار الشعب - القاهرة .
- ٥ - ديوان أبي تمام - الطبعة الثانية - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٢ م .
- ٦ - ديوان أبي العتاهية - مطبعة الآباء اليسوعيين - بيروت ١٨٨٦ م .
- ٧ - ديوان أبي نواس - تقديم : علي فاعور - الطبعة الأولى - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٧ م .
- ٨ - ديوان بشار بن برد - شرح: محمد الطاهر بن عاشور - الطبعة الثانية - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٩ - طبقاتُ الشعراء - ابن المعتز - تحقيق : عبد الستار فرّاج - الطبعة الثالثة - دار المعارف القاهرة ١٩٧٦ م .
- ١٠ - القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي - د. توفيق الفيل - مطبوعات جامعة الكويت .
- ١١ - لزوم ما لا يلزم - أبو العلاء المعري .
- ١٢ - المثل السائر - ابن الأثير - تحقيق د. أحمد الحوفي - دار نهضة مصر .
- ١٣ - المذاهب الأدبية د. ماهر حسن فهمي - دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع - الدوحة قطر ١٩٨٣ م .
- ١٢ - مروج الذهب - المسعودي - المطبعة البهية .
- ١٣ - من حديث الشعر والنثر - د. طه حسين - القاهرة .
- ١٤ - الموشح - المرزباني - طبع السلفية - القاهرة ١٣٤٣ هـ .
- ١٥ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ابن تغري بردي - طبع دار الكتب المصريّة القاهرة سنة ١٩٣٦ م .
- ١٦ - وفيات الأعيان - ابن خُلّكان - البابي الحلبي - مصر ١٢١٠ هـ .